نشر في كتيّب مشترك، أعمال المؤتمر بعنوان:
الجندر في التعليم العالي: إدماج مسألة النوع الاجتماعي والدراسات النسائية في المناهج الجامعية،
تجمّع الباحثات اللبنانيات والمكتب الإقليمي للأنيسكو- بيروت، 5 حزيران، 2005.

الجندر في علم النفس

(مقترح من أجل إدماج النوع الاجتماعي في سياسة ومناهج الجامعة اللبنانية)

عزّه شرارة بيضون

تمهيد

لا يشذ علم النفس عن الميادين المعرفية الأخرى في كونه نشأ وتطوّر ليخدم أغراض السلطات التي رعته، والتي استفادت من نتاجه من أجل توطيد نفوذها. بعض هذه السلطات كان طلبها مباشراً، كما هي حال الدول الذاهبة إلى الحروب [1] أو تلك الراجعة منها [2] ؛ ومنها، أيضاً، دول مزدهرة، كما نشهد اليوم في حقل السلوك التنظيمي [3].

لكن أغراض السلطات المُغْفلة/ غير الصريحة كانت أكثر ثباتاً وأوفر تأثيراً في هذا الميدان. وهي مارست سلطتها في أولويات طرح المسائل، في المسلّمات كما في المقاربات والوسائل المعتمدة.

السلطة الذكرية وإنتاج المعرفة

إحدى هذه السلطات هي السلطة الذكرية. وهذه جعلت من علم النفس ميداناً معرفياً متمحوراً حول الرجل، وحتى أمد ليس ببعيد.

لإضفاء بعض الملموسية على ما أقول ، أتناول في ما يلي، موضوعاً عولج في ميدان علم النفس هو "التطوّر الأخلاقي". نعلم أن علم النفس الشعبوي، حمل في ثنايا خطابه تصوّراً للمرأة تستوي بموجبه قاصرة بشكل عام، وقاصرة أخلاقياً، بشكل خاص. هذا القصور بدا متضمناً في مسوّغات دونيتها الإنسانية، بل دليلاً عليها.

---

[1] جاء طلبها محفّزاً على إطلاق حركة القياسات النفسانية.

[2] تلك التي جنّدت باحثين من علم النفس الاجتماعي سعياً للتعامل مع آثار الحرب وتأثيراته المختلفة.

[3] الذي تأسس من أجل السعي لفهم سلوك الناس في المؤسسات / المنظمات في البلدان الصناعية ، إدارة ذلك السلوك وضبطه، ضماناً لتسيير الإنتاج وتحسينه... إلخ

هذا، وانشغل علم النفس في بداياته بهذه المسألة ولجأ إلى العلم "المضبوط" ليثبت الشائع: كون المرأة سجينة قدرها البيولوجي/ الإنجابي ومترتباته، فلا يسعها التحرر من ذلك القدر إلى الفضاء الأسمى- ذلك المتمثّل بالضمير الإنساني وصنوه العدالة المجرّدة.

و فرويد- كرّس هذه الفكرة لدى صياغته مفهوم "الأنا الأعلى". ففي وصف دينامية تشكّله، بيّن فرويد التصاق مصير هذا الركن من الشخصية بتمثّل الجسد ليأتي قصوره وضعفه لدى الأنثى حقيقة مترتّبة عن "قصور ودونية" الجسد الأنثوي[4].

وفي محطّة تالية، ومن منظور علم النفس المعرفي، قدّم كولبرغ [5] – استكمالاً لعمل بياجية- نظريته في التطوّر الأخلاقي. ووقع على نتيجة شبيهة: من أن النساء لا يسعهن الوصول إلى مراحل متقدّمة من النمو الأخلاقي – العدالة المطلقة / المجرّدة- بل تراهن يراوحن في المراحل الأدنى منه.

فرويد وكولبرغ، ومن منظورين متباينين، استنطقا النساء؛ لكن تأويلهما لخطابهن بقي أسير الأطر المرجعية السائدة- المرجعية المعرفية الذكرية تحديداً.

"بصوت مختلف"

من الأسماء الأكثر شهرة في مقارعة تلك المرجعية نذكر غيليغان [6] في كتابها "بصوت مختلف". وهي من اللواتي جهرن بأن علم النفس ميدان يتكلّم ب"صوت ذكري". فإيلاء العدالة المطلقة / المجرّدة مرتبة أعلى في سلّم التطوّر الأخلاقي إنما يتم من المنظور الذكري واستيفاء لضرورة تحقيق الانفصال/ التفرّد/ الفردانية مثالاً لاكتمال نموّ الشخص، ولتحقيق رشده في المجتمعات والثقافات الغربية، وحضارتها القائمة على التنافس والهيكلة الهرمية . لكن الإناث، وتبعاً لعوامل تتعلّق بوظائفهن وتنشئتهن على الاستجابة لمتطلّباتها، يَمِلْن للإعلاء من أخلاقيات الارتباط والتعلّق والاعتماد المتبادل على أخلاقيات العدالة المطلقة والمجرّدة..... هذا هو "صوتهن المختلف" الذي بقي خافتاً ، أو تمّ تجاهله في ميدان علم النفس، كما في غيره من الميادين.

كان ما سبق مثلاً عن افتقار علم النفس إلى الحيادية والتي تزعم العلومُ التقيّدَ بشروطها. ويبيّن انحيازاً، لا لبس فيه، إلى المثال الذكري بجعله المعيار الذي يتم بإزائه قياس

---

[4] وما يعطي نظرية التحليل النفسي مصداقية أكبر كونها جعلت النساء مصدراً لهذه المعرفة. ففرويد، وكما نعرف جميعاً، استمع إلى النساء جاعلاً كلامهن المادة الرئيسية الخام لصياغة نظرياته حول الأنوثة وعثراتها الكثيرة.

[5] Kohlberg, L.,(1976), " Moral stages and Moralization:the Cognitive –Developmental Approach, in Lickong,T., **Moral Development and Behavior**, Holt, N.Y.

[6] Gilligan, C., (1982), **In a different Voice: Psychological Theory and Women Development**, Harvard University Press, Cambridge Mass..

درجة اكتمال إنسانية الأنثى. ويزخر علم النفس بأمثلة[7] يشكّل فيها المثال الذكري العدسة المعيارية للنظر في خبرات الإناث ومعاشهن.

وسائل إنتاج المعرفة

لكن الأمر لا يقتصر على مضامين المعرفة، بل يتعدّاه إلى الوسائل العلمية المُعتمدة لإنتاج تلك المعرفة. وإذ يسعى الباحثون في علم النفس للضبط والانضباط في تصميم الاختبارات وفي تنفيذها، وحيث تفترض شروط علمية نتائج أبحاثهم إقامة وضعيات مخبرية/ عيادية ، فإن سعيهم المذكور يعمل على انتزاع الوضعية والفاعلين فيها من السياق الاجتماعي/ الثقافي.... أي، اعتبار الفرد/ الشخص وحدة التحليل الأساسية. فإن صحّ ذلك العزل عن السياق لوصف الرجال في المجتمعات والثقافات المعاصرة، فهو قلّما يصف النساء؛ لأن هؤلاء ينحين لأن يحملن تصوّراً غير منفرداً لذواتهن، بل هن يختبرن معاشهن، غالباً، عبر علاقة مع آخر وفي سياق وضعية ما. وهو ما جعل شودوروه تنقش مفهوم " الفردية العلائقية"[8] لتصف أحوال النساء النفسانية. من هنا، فإن الوسائل ذات المصداقية الأعلى في علم النفس قاصرة، في الغالب، عن التقاط جوهر معاش النساء وخبراتهن.

الحركة النسوية و"الصوت الذكري"

لا يخفى على اللبيب بأن تحدّي سيادة "الصوت الذكري" في ميدان علم النفس وهيمنته إنما جاء بتأثير الحركة النسوية في الغرب[9]. على أ ن تحدّي الهيمنة هذه لم يكن غايته إلغاء "الصوت الذكري" المذكور؛ إن السيكولوجيات اللواتي عانين من أحّادية النظرة في هذا الميدان- كما عانت غيرهن من المنخرطات في الميادين العلمية الأخرى- تجنّبن كل ما من شأنه أن يحدث تكراراً معكوساً للوضعيات التي عانين فيها من التحيّز أو الإلغاء. ومن هو أدرى منهن بباثولوجية كلّ من المنحيين: التكرار والإلغاء . بل كنت تراهن يلجأن إلى استراتيجية في المقاربة تتسم بالاشتمال inclusive - اشتمال الآخر، لا الاستبعاد exclusive - استبعاد الآخر. ومن علائم ذلك الاشتمال تبنّي المقاربة الجندرية في علم النفس.

---

[7] أنظر تلخيصاً لبعضها، مثلاً، في كتابنا **صحّة النساء النفسية بين أهل العلم وأهل الدين: دراسة ميدانية في بيروت الكبرى**، دار الجديد، بيروت، 1998.

[8] Chodorow, N.,(1989), "Toward a Relational Individualsim : The Mediation of Self through Psychanalysis" In Chodorow,N. Feminism and Psychanalytic Theory, Yale University press, New Haven and London.

[9] هذا التحدّي بات ممكناً مع ارتفاع أعداد النساء السيكولوجيات ارتفاعاً مطّرداً في القرن الماضي فبتن يشكّلن مجموعات ضغط من أجل الأخذ بالحسبان وجهات نظرهن، بدل تجاهلها، في مختلف حقوله وفي هيئاته المهنية وهيئاتها التمثيلية.

المقاربة الجندرية gender approach

ما هي هذه المقاربة؟

تتمثّل المقاربة الجندرية في ميدان علم النفس بتبنّي حالة من **التيقّظ المنهجي** لمفاعيل الجندر/ النوع الاجتماعي وأثره على المتغيّرات/ الحالات / الوضعيات قيد الدرس أو قيد المعالجة. أي، بتوسّل الأطر المفاهيمية، وباعتماد الأدوات الاستقصائية والتحليلية الآيلة إلى التنبّه للمعنى وللقيمة التي تسبغهما الثقافات الاجتماعية على الانتماء لواحد من الجنسين البيولوجيين؛ وذلك لأن إغفال هذا المعنى وإهمال أثر تلك القيمة مرشّح، كلاهما، للتشويش على منطلقات الدراسة/المعالجة، مسارها، نتائجها؛ وذلك من أجل العمل على تحييدها، أو السعي لإبرازها، وبحسب الحالة. إن التنبّه المذكور ضروري في وعي الباحث/ المعالِج لذاته، ولهوّية المبحوث/ المعالَج، سواء بسواء.

المقاربة الجندرية لا حيادية

لا يدّعي من تبنّى المقاربة الجندرية الحيادية. بل هي تأسست على موقف شكاك من احتمال تحقيق تلك الحيادية. وحيث غلب الطابع الذكري على علم النفس لعقود طويلة، فإن السعي لاستعادة التوازن أحدث طغياناً مرحلياً للمواضيع والانشغالات النسائية. هذا لم يؤدِّ إلى استبعاد المواضيع الذكرية؛ بل هو شكّل، في بعض الحالات، استدعاء لما خفي منها[10].

أردت من قولي هذا، طمأنة المتحفّظين حذراً من شطط محتمل يفضي إلى استبدال تحيّز بآخر؛ فنحن، ولدى تبنينا المقاربة الجندرية، ملتزمين وملتزمات بالتنبّه لأن لا نقع في ذلك الخطأ؛ فنحن لا نرغب باستبدال هيمنة بأخرى. ولنا في تراث الحركة النسائية اللبنانية- وهي شريكة لنا في هذا المشروع- ممارسات واتجاهات غير تمييزية، بل تشاركية وتفاعلية مع الرجال، أفراداً ومنظمات.

الجندر والمتغيّرات الأخرى

إن الحساسية الخاصة تجاه التحيّز والتمييز التي أسست لهذه المقاربة....هذه الحساسية لم تقف عند الانقسام بحسب الجنس البيولوجي، بل ذهبت إلى ابعد من ذلك. فإذا كان الجندر/

[10] ومن ذلك، مثلاً، أنه حين قامت السيكولوجيات بتحدّي نظرية الاغتصاب الفرويدية المشهورة، لم يُكتشف انتهاك الفتيات الصغيرات الجنسي من قِبَل أقربائهن الذكور فحسب، بل وأيضاً، انتهاك الذكور الصغار من هؤلاء الأقرباء.

كذلك، فإن إزالة هالة التقديس عن الأمومة – والتقديس المذكور، كما لا يخفى، اتجاه بطركي ذكوري- تبيّن أن الأم قد تمارس انتهاكاً شبيهاً.

النوع الاجتماعي يتشكّل في ثقافة واجتماع محددين، فهو تابع، أيضاً، للتاريخ والجغرافيا والطبقة والإثنية، والعرق.... إلى ما هنالك من مصنّفات. من هنا، فإن المقاربة الجندرية لا تعترف بمصنّف "امرأة" أو "رجل"، بل تفترض وجود نساء ورجال وبفروق فردية داخل المصنّفين تبعاً لمتغيّرات وسيطة parameters لا تقلّ تأثيراً على تشكّل أي واحد منهما [11].

المقابة الجندرية في سياسات ومناهج علم النفس عندنا

لماذا اعتماد المقاربة الجندرية في أقسام علم النفس في الجامعة اللبنانية؟

إضافة إلى ما جاء في المشروع الأعمّ سوف أتكلّم عن سببين:

الأوّل، المصادر الأجنبية:

ندرّس في أقسام علم النفس في جامعتنا النظريات والمقاربات والوسائل التي طوّرت في الغرب، أساساً. في هذه المصادر بات مصطلح الجندر وتفريعاته (الهوية الجندرية gender identity، المقاربة الجندرية gender approach، الحساسية الجندرية gender sinsitivity، التعصّب الجندري gender prejudice ....) قائما بين السطور بتواتر غير قليل..... فيصعب تفاديه. إن تقديم مفهوم الجندر وتفريعاته في تدريسنا لا تستدعيه الأمانة العلمية فحسب، إنما أيضاً واجبنا كأساتذة في هذا الصرح. أتكلّم عن واجبنا المتمثّل بوجوب تحريض الطلاب الذين ائتمنا على تشكيلهم المعرفي على الإبحار في مجالات تلك المعرفة- في صياغاتها الأكثر معاصرة، تحديداً.

الثاني، سوق العمل:

قياساً على وتيرة استدعائنا، نحن الباحثات والباحثين في الشأن النسائي أو في شؤون الجندر، لاستشارات أو لتنفيذ دراسات أو القيام بتدريبات....إلخ فإن سوق العمل في هذين المجالين يبدو لنا غير مشبع، بل ما زال بحاجة إلى معارف ومهارات معقودة حول ذلك المفهوم وتفريعاته. أتكلّم عن طلب من المنظمات الدولية العاملة في لبنان، المنظمات غير الحكومية المحلية والعالمية، بل وأيضاً المؤسسات الخاصة. وأخصّ بالذكر الدولة اللبنانية التي اتخذت

[11] تختلف النساء في ما بينهن تبعاً لانتماءاتهن الطبقية، الثقافية، القومية، الإثنية، إلخ.. وهو ما يعقّد المقاربات والمعالجات، ويُعلي من حدّة الحذر من التعميم بشان النتائج المحصّلة، ويجعلها أكثر واقعية لأنها أكثر تمثيلاً للواقع وواقعية.

قراراً بإدماج الجندر/ النوع الاجتماعي mainstraeming gender في مؤسساتها ووزاراتها، لكنها تحجم عن تنفيذ ذلك بسبب افتقارها إلى الموارد الإنسانية.

من هنا، فإن إدماج الجندر في مناهج علم النفس قد يضيف إلى طلابنا، وأكثرهم من الإناث، إمكانات للعمل، ويعزز سعينا الرامي إلى التمهين في اختصاص علم النفس في جامعتنا.

في الخاتمة

أخيراً، أرغب بإعلامكم بأنني أقوم أنا شخصياً بإدماج النوع الاجتماعي في الأرصدة التي أدرّسها، كلّما كان ذلك متاحاً. وقد وسّع ذلك الإدماج دائرة الأرصدة التي أدرّسها، وفتحها على وسائل وطرق حديثة للبحث. ويسعدني أن أخبركم بأنني لم أَلْقَ المعارضة التي نألفها في جامعتنا؛ أتكلّم عن تذمّر الطلاب وشكاواهم من كِبَر حجم المادّة وتشعّبها، بل يسعني القول بأنني لقيت ترحيباً من قسم من الطلاب والطالبات، سواء بسواء.

أستنتج بأنني أستجيب، وفي اقلّ تقدير، لحاجة الطلاب والطالبات المعرفية، وإن كنت أطمح إلى أبعد من ذلك. أطمح بأن تتجاوز استجابة هؤلاء إلى ما عبّر عنه بعضهم؛ أن يكون التعليم الجامعي حاثاً على صوغ أسئلة ومحفّزاً للبحث عن إجابات خاصّة وعامّة ترتقي بإنسانيتهم، نساء ورجالاً، إلى الاشتمال؛ فلا يقع أي من الطرفين، لا النساء ولا الرجال، ضحية استبعاد أي منهما للآخر- لا موضوعاً لذلك الاستبعاد ولا ناشطاً في إنتاج شروطه.

أيها الزميلات والزملاء

اسمحوا لي بقول بديهي:

الاستبعاد ، أعمى البصر والبصيرة، ويقع أثره على الفاعل وموضوع الفعل معاً، وبالسوية نفسها.

المقاربة الجندرية في العلوم الإنسانية تبدو لي دعوة للاشتمال والمغامرة في آفاق الآخر المنسي.